القرصنة

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

– **القرصنة** (راجع الأجفان الجهاية) لا يمكن أن نفصل تاريخ القرصنة الموسومة بالإفريقية عن حركة الغزو والتمسيح التي نسقت (كما يقول طيراس في كتابه تاريخ المغرب) تنسيقا بديعا تحت ظل البابوية وقد أغار الأسبان على شرق البلاد بينما اكتسح البرتغاليون غربها محاولين إقرار حمايتهم على مجموع المغرب ولكن هذه المحاولات ارتطمت بصمود تلقائي عنيف من طرف الشعب المغربي الذي كادت تجرف به لأول مرة في تاريخه حملة الغزاة الأوربيين في كتلة متراصة لصد العدوان فخف المتطوعون من جميع أنحاء البلاد للتجمع من أجل إنقاذ الوطن المهدد، وقد لاحظ (تيراس) أن مجاهدي الجنوب الأقصى للمغرب شوهدوا وراء أسوار (سبتة) متحفزين للوثوب على العدو، فقد كان المغربي متسامحا ولا يزال إزاء الأوروبيين واستوثقت مع أوربا طوال خمسة قرون في جو من التحالف الواثق الهادئ غير أن هذا المساس بسيادته وكيانه وذلك الثلم الأليم لكرامته وحريته أسفرا عن تفتق عهد جديد وسمه الحذر والحيطة بطابع خاص فانقلبت الجماهير المتسامحة المسالمة إلى شعب هائج مس مساسا بليغا في شعوره القومي فانتفض انتفاضة الموثور للذب عن حماه وحداه ذلك الحذر إلى الانطواء على نفسه لا بالنسبة للعالم المسيحي وحده بل حتى بالنسبة للإمبراطورية العثمانية التي اكتسحت منذ القرن السادس عشر الميلادي و الإقليمين الشرقيين للشمال الإفريقي وهما الجزائر وتونس وبعض المراكز الساحلية في المغرب الشرقي والريف . ذلك أن التوسع التركي كان يرمي إلى الاستيلاء في شمال المغرب على بعض المراكز الاستراتيجية التي كانت تركيا ترى من الضروري مراقبتها لتعزيز كفاحها ضد الأسبان غير أن المغرب الذي كان شديد التمسك باستقلاله في خوض كفاح مرير من أجل الدفاع عن كيانه ضد كل المعتدين ولو كانوا من المسلمين، فكفاحه هذا لم يقسم إذن بسمة رسمية عنصرية ولا ملية وإنما كان رد فعل قوي ضد الأجنبي بصفته معتديا وهذه الفترة العصيبة في التاريخ العربي قد وافقت سقوط غرناطة آخر معقل إسلامي في أسبانيا والفتك الذريع الجماعي بعشرات الآلاف من الأندلسيين فاضطر المغرب الذي انتزع منه قسط من ترابه الوطني إلى إيواء المهاجرين الأندلسيين الذين حملوا معهم الحقد وانطوت قلوبهم على ضغينة ضد الأعداء الذين طردوهم من بلادهم . نعم إن المهاجرين الأندلسيين حنقوا أشد الحنق على أسبانيا التي فتكت في ظرف (139) سنة بنحو ثلاثة ملايين من المسلمين واليهود حسب المؤرخ لورانت (**Lorente**) في تاريخه النقدي للتعذيب بأسبانيا كما أحرقوا (عام 1599) ءالاف المخطوطات العربية حسب رواية المؤرخ بيرسكوت (**Perscott**) في كتابه حول فرناد وإيزابيلا (ص451) وهكذا انقلب الأندلسيون الذين فقدوا أموالهم وعائلاتهم من جراء الضربات المتوالية التي أنزلتها بهم أسبانيا الصليبية هبوا ليأخذوا الثأر لقتلاهم فاستوطنوا بعض مدن الشمال وكونوا عصابة من القراصنة هاجمت الأساطيل المسيحية في قوة وعنف، فتحولت القرصنة البحرية آنذاك إلى كفاح وطني وقد ابرز المؤرخ الإنجليزي (لينبول) هذا النوع الجديد من الحرب في الكتاب الذي صنفه حول قراصنة إفريقيا وبذلك ارتسمت القرصنة كمرحلة جوهرية في المناورات الحربية في ذلك العصر فاقض القراصنة الأندلسيون مضاجع الغزاة الأسبان الذين كانوا قد استقروا بقسم من الساحل الإفريقي مما حدا الأستاذ (تيراس) إلى القول بأن سيطرة العثمانيين على سواحل الجزائر وتونس كانت نتيجة رد فعل لعائلة من القرصنة ضد الاكتساحات الأسبانية على هاته الشواطئ كما أكد المؤرخ (أندري جوليان) أن تدخل هؤلاء القراصنة العرب هو الذي أدى إلى فشل سياسة أسبانيا الإفريقية كما غير مجرى تاريخ القارة الإفريقية.

ففي عام (1501م) نقل السيد خير الدين المعروف عند الأوربيين بباربروس وهو مسيحي الأصل من جزيرة (ليسوس) اليونانية – مركز عملياته إلى البحر البيض المتوسط بعدما ساعد على إجازة سبعين ألف أندلسي إلى التراب المغربي (راجع لين بول ص59) وبذلك اندرج في سلك عصابة (خير الدين) عدد من المرتزقة للقيام بالقرصنة في مياه المتوسط .

وكانت هناك أوكار أخرى للقراصنة في شواطئ الأطلنكيك لا سيما في مصب أبي رقراق تطور نشاطها مع الأيام حتى أصبح رجالها معروفين بالقراصنة السلاويين.

وقد بدأت القرصنة بعد استقرار (الهورناشيروس) الموتورين بقصبة الرباط فكان الأمير (زيدان) بن المنصور السعدي يحصل على عشر (1/10) الرجال والبضاعة المقرصنة وفي عام 1612 طرد الأسبان قراصنة المعمورة فلجأوا إلى ميناء العدوتين وانضموا إلى القراصنة الأندلسيين .

(**Relation de la prise de la Mamora le 7 août** 1614.) (دوكاستر م.2 ص566 – باريس 1924)

وهنا تضخمت القرصنة فأصبح (الجهاد الأندلسي) يتبلور في شكل قرصنة ملاحية خطيرة منذ (1620م) في كل من المتوسط والمحيط وقد أسر القراصنة (ستة ءالاف) مسيحي في ظرف عشر سنوات (1618–1628) وبلغت حصيلة القرصنة (15) مليون ليرة (دوكاستر م.3 ص116) ارتفعت إلى (25) مليون ثم (26) مليون دوكا (مثقال) فيما بين (1629 و 1639) (دوكاستر – الجمهوريات الثلاث ص13).

وقد اقتنص القراصنة حوالي (1040هـ / 1630) سبعة وأربعين (47) مركبا في ثلاثة موانئ إنجليزية هي **(Devon, Dorset, Sonthampton)** وأسروا أكثر من ثلاثة ءالاف مواطن إنجليز ي (حذف قسم راجعه حوله وفي عام (1666م) فقدت القرصنة استقلالها وأصبحت العدوتان كسائر الحواضر المغربية مركزا مخزنيا وماكاد يبزع العهد الإسماعيلي (1671م) حتى كان لكل من الرباط وسلا ولي خاص وخضعت القرصنة للسلطان فأصبحت رسالتها الأولى الحيلولة دون تسرب البواخر المسيحية للميناء التي صار أنشط مراسي المغرب بلغ دخله الديواني بمائتي الف ليرة عام (1668م) وقد حد المولى اسماعيل من نشاط القرصنة فقصرها على المتوسط وقلص حصائلها دعما للتجارة الحرة النزيهة مع دول اوربية في طليعتها إنجلترا وهولندا مما أدى إلى تأسيس الصويرة تلافيا للحاجز الرملي في مصب أبي رقراق وفي نفس الوقت شجع المولى محمد بن عبد الله التجار المسيحيين فأعفاهم من بعض واجبات الجمرك عام 1767 وكانت قد بلغت ب الرباطوسلا وأسفي (20.000) بياستر و(150000) في الصويرة وبذلك تقلص جانب كبير من نشاط القرصنة التي كان السلطان يحمي دولا أوربية من لأوائها حيث تؤدي للمغرب (إتاوات لهذه الغاية ولم يعد هنالك اعتبار لما أضفي على القرصنة من أوصاف الجهاد ضد العدوان الأسباني البرتغالي ضد الأندلسيين المهجرين والمنصرين قسرا ولم يكد المولى سليمان يعتلي العرش حتى جعل حدا نهائيا للقرصنة إلا أن المولى عبد الرحمن بن هشام الذي تكالبت ضده بعض دول أوربا وخاصة فرنسا قام منذ عام 1828 بدعم الجهاد البحري وصد الأساطيل الأجنبية عن المياه المغربية مما أدى إلى نقل مركب شراعي نمساوي إلى ميناء أبي رقراق وقنبلة الأسطول النمساوي للعرائش وأصيلا وتطوان عام 1829 فأعيد المركب إلى النمسا عام 1830 ووقع مثل ذلك عام 1851 بخصوص مركب فرنسي أدى إلى قنبلة المرسى من طرف الأسطول الفرنسي الذي أصابت قذائف بطاريات الرباط بعض بواخره ولم يثبت أن اليهود ساهموا فعلا في الأعمال القرصنية لأنهم كانوا يكرهون المغامرة في عمليات قد تودي بحياتهم ولكنهم كانوا يستفيدون من الصفقات التجارية التي تباع فيها حصائل القرصنة .

وهذا الموقف الصارم من الملوك العلويين ضد القرصنة التي سبق أن حاربها الموحدون في البحر المتوسط بواسطة (ميليشية) ملاحية خاصة في القرن السادس الهجري – راجع إلى أنها أصبحت ضربا من التجارة الإجرامية أو اللصوصية البحرية ساهم فيها الأوربيون وشجعوها كما شارك فيها أعلاج اعتنقوا الإسلام لتغطية إجرامهم (راجع الأجفان الجهادية) وقد رابطت سفنها في مراكز مثل تطوان والعدوتين (الرباط وسلا) نشط فيها أيضا بعض المغاربة من مسلمين ويهود وقد كان لسمويل بالاش اليهودي يخت وسفينة يستغلها للقرصنة في عهد المولى زيدان مما أدى إلى اعتقاله من طرف حكومة لندن عام (1024هـ / 1615) (دوكاستر – السعديون – ج2).

وعلى أي حال فإن الأعمال التي كان يرتكبها هؤلاء القراصنة أصبحت مع الزمان مثار قلق بالنسبة للمغرب ولم يكن في وسع ملوكنا مواجهة هذه المشاكل لأن المسئولية ترجع في الواقع إلى أوربا التي تحدت السلطات المغربية المشروعة فاعترفت بمن يسمون القراصنة المغاربة طوال قرنين اثنين بوجود قانوني شبه رسمي (راجع كتاب دوكاستر في الموضوع) بل إن بعض الدول الأوربية حالفت هؤلاء القراصنة وشجعتهم ثم شملتهم بعطفها وحمايتها مثل هولندا وإنجلترا فلا يعزب عن أذهان المؤرخين ذلك العمل الغريب الذي قامت به الولايات العامة (أي هولندا) حيث أجبرت بحارة لوبيك (وهي مرسى ألمانية تقع على بعد 515م) على المغامرة القرصنية ومعلوم أن الكاردينال ريشليو **Richelieu** الذي كان يتقاضى كل سنة من أسلاب القراصنة وخاصة الأفارقة عدة ملايين لفائدته الخاصة كما كتب بذلك عام 1631 في عهد لويس الثالث عشر (حروب لويس الثالث عشر للمؤرخ بيرنار).

وهذا التواطؤ الإجرامي بين أوربا والقراصنة من كل الأجناس الذين اتخذوا مراكز لهم في موانئ المغرب هو الذي حمل مؤتمر (فيينا) منذ عام (1814) على حمل السلطان على منع البحارة المغاربة من السفر إلى أوربا بتهديد الإعدام حيث قرئ كتاب السلطان المولى سليمان عام (1231هـ /1816) بجامع القصبة بالرباط وبذلك منع كل رايس من دخول أي بلد أوربي (تاريخ الضعيف ج2 ص141) وحظر عليهم القرصنة جهادا في البحر ضد الأجناس ونفي بعض القراصنة إلى الإيالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس واحتفظ بالباقي للدفاع المشروع عن الشواطئ المغربية (الاستقصا ج4 ص151) فتوقفت القرصنة ونقلت البواخر المعطلة للمرابطة في ميناء العرائش .

Lieutenant W. Arlett, description de la côte d'Afrique, depuis le Cap Spartel jusqu'au Cap Bojador, in bulletin de la Soc. Géog. de Paris, Janvier 1837 (p. 12-48)

وقد اختلفت المصادر في أعداد المراكب القرصنية في ميناء أبي رقراق حيث لاحظ **Albert Ruyl** (عام 1622) (ص271) وجود ثلاث عشرة سفينة فقط ذات حمولة خفيفة نظرا للحاجز الرملي ولكن **Razilly** أوصلها إلى ستين مركبا عام (1662م) (**Mémoire de Rasilly à Richelieu p. 116**) وأحصى ريسنسبورغ نحو (40) أو (50) مركبا بينما أوصلها القنصل **Henriprat** إلى أكثر من (ثلاثين) عام 1631 وكانت البواخر الكبرى تعجز عن مطاردة الأسطول القرصني نظرا للحاجز الرملي **barre** في مصب أبي رقراق بالإضافة إلى توفر الميناء على بطاريات قوية من المدافع والعتاد وكان الأندلسيون يعملون في هذا المجال بروح الحقد ضد المسيحيين عموما والأسبان خصوصا فكانوا يهاجمون هؤلاء بسهولة نظرا لإتقانهم الأسبانية فكانوا يضعون على بواخرهم طابع المتاجرة ويرفعون الراية الأسبانية خداعا وبذلك كانوا يهاجمون حتى البواخر الفرنسية والإنجليزية فيصلون إلى المياه البريطانية **Terre-Neuve** بل ينزلون في البر وينقلون الأسرى والغنائم حتى قال (سيرفانطيس) : "كم من رجل شاهد شروق الشمس بأسبانيا ورآها تغرب في المغرب" (دوكاستر – الجمهوريات الثلاث ص 12) نقلا عن (**La illustra Fregona**).

وكان بعض قواد القصبة يتعللون بوجوب الدفاع عن حصنهم ضد العدوان الأجنبي فيأخذون حظ الأسد من حصائل القرصنة وقد لاحظ **Albert Ruyl** أن قائد القصبة حصل هو وكاتبه (**Moïse Saint-Jago**) عام (1622) علي خمس الغنائم لضمان صيانة القصبة وحمايتها وفي نفس السنة قام علي ابن علي خادم نفس القائد بحجز باخرة كانت ذاهبة من **Moscovie** إلى **Livourne** تحتوي على أزيد من (3000) قطعة من الجلد و (152) قنطار من السمك المدخن و (93) من الكافيار و1000 قطعة خشب من برازيلي قيمة الجميع (160.000 فلوران)

Attestation de Samuel et Joseph Pallache, de 10 avril 1614

(دوكاستر – م.2 ص269 – باريس 1907).